

## حين يُجربُ حنينُ الخيول

هيفاء داوود الأطرش // 2009 م

( كتبت هذه الكلمات بمناسبة تجربة كشف الحنين الفلسطيني ؛ حيث وصلنا أخيراً الحدود الفلسطينية من الشمال حتى الوسط من الجهة الأردنية العريضة؛ احتفاءً بالقدس عاصمة الثقافة العربية لعام 2009م؛ وكنا مجموعة من الفلسطينيين الحاملين هم القضية وحبها بين ضلوعنا. وذكرت فيها أبطالاً حقيقيين من المجموعة الأبطال وهم بالتسلسل أمي (عمتي) ابنة حيفا وابنة عكا(إيمان) وميسون وعماد وراوية وفلسطين والأخ اسماعيل وأحمد )

كانت أكف الصبار تلمم وجهي ؛ فتسانلت أعتاد طبع الحدود؟! ومضيت... وحين اكتمال المشهد الفريد ! ذابت فرحتي في أفق أحزاني ؛ وعانقت عيناى بحيرتي... طبريتي وحطيني .....

وانكشف حنيني ملامساً عبق البلاد؛ ورפרفت سلاماتي نحو حيفا.. والناصره.. نحو الجبال والمهاد ولم تغسل دموعي هذي المرة الزجاج ! ثم غابت المشاهد.. تبعثرت تحت نصل الحدود..... واعتذرت للبلاد لأنني أدت ظهري لها .. اعتذرت لأنني قفلت مكبله بعودتي.. نحو لا عودتي ! وضاعت هنا المصطلحات والمعاني؛ فخلفي الآن هو أمامي

وأمامي الإجماري خلفي ! وأجهشت كلمات مني ... من داخلي لتطرق في مسامعي : سأعود إليك يا بلدي عبر طرق ملتفة قصيرة أو طويلة ... طويلة؟؟! هكذا قالوا حربنا طويلة الأمد.. طويلة.... وجاءني صوت الحبيبة من هناك... أمي.. تقول: إن أذن التصريح.. سأتيك لا تحزني .....

وقفلت مجبرة في طريق ليس لي فيه ؛ إلا عبوراً راجعاً نحو الضياع ... لكنني أبيت - أنا ابنة حيفا ؛ وصديقتي الشقراء توأم روعي ابنة عكا - أبيتا إلا أن نبول على الحدود فبلنا على السياج ؛ وقلنا: لا عليك السلام .....

وسجنا ثانية في حافلة سيطرت عليها وعلينا الممنوعات أقفل الكاميرا.. أقفل المسجلات.. وأقفل فمك .. لا بأس إن أبيت عينيك مفتوحة تُورشف ذل النقطة الحدودية !! وكلّ النقاط .....

لكن صوت فلسطين فينا.. صوت أمل صاح : لن أرضى بالسكوت ...

وجاءت من تهدد جرحها وجرحنا

فتنزع فتيل الأتات.. قالت : الصمت أبلغ أحياناً

من الرصاص والكلمات ! وشرعت بوابات الدمع عندها ولم تطو الصفحات ؛ والحافلة تطوي الأرض تحتها..

وعلى يميننا أن النخيل وزهر الليمونات..

السريس والزعر خلف السياج يعبق في صدورنا.. يهزج مع الهنات.. وصوت أسمر يقول: كحلوا عيونكم بها وتحسروا... صرخت ميسون: لا يا أسمر لن نتحسر.. سنقاوم حتى الحاجز يكسر..... والوقت تطيره الريح مجنونة نحو بحرنا الميت الذي عاش فينا أكثر... وركبنا صهوة الزمن كي نبلغ البحر فرمينا قلبنا حجراً.. يقفز ويرقص فوق شفافه ليشكل

دائرةً ودائرةً... ثم دائرة تكبر في زرقة تتسع لتحتوي فينا الحنين والفرح.... أقصد الحزن والألم.. أقصد أننا.. لا أدري ما أقصد!! أو لا أقصد... ماذا؟! ترى هل عادت لحظة تفوقعي في تلثم الكلمات والمعاني.....!!!!

وجاءت ميسون ببراءة ثغرها ؛ وقد جف للتو دمعها أخبرتني كيف فرضت مشاعرها إحساس اللجوء عليها وهي القادمة من عمق الوطن .. كل المعاني التي تكونت في تجربة كشف الحنين العجيبة افترشت قلبها الأبيض مثلنا... قالت: أحس بكم يا أختي الآن أكثر...!!

ميسون زهرة البلاد ؛ شاهدة على لقاء قريب بعيد.. بعيد قريب!!

حناجرنا حررت أنفاس ثورة فينا ؛ وحررت كبتاً هنا وجه عماد الجمهوري أدلى بتصريح : لادموع نافعة ولأحزان؛ إلا السواعد للأوطان.. غنى الرجوع للبلاد.. غنى عماد .....

ودموع راوية لم تتضبط... ظلت تروي حكايا البلاد فعانقت جليستها التي حملت اسم البلاد.. فلسطين هي فلسطين شرف البلاد؛ كورت أحلامنا زورقاً يطفو ويسبح نحو ضفتنا هناك!!

المواويل تجيد الرقص على الشفاه... المواويل تغص في تركيبة غربة التراكيب... المواويل موسيقى تصويرية لوصولنا... وصلنا أخيراً بحرنا...!! صمت... ذهول... صمت لم يشبه إلا فرقة الملح تحت أقدامنا!!... بكى وصولنا... لأنه خلفي الاتجاه... كناً نود لقاءك يا بحرنا بوصولنا من مسقط الرأس هناك..

الآن... أنا هنا!! ها أنا الآن على ضفتك... لا بأس إن كانت المقابلة ؛ وأسميك يا يم كنعان... الأمس ماءك!! كم م م م كنت أرسمك! الآن ترسمني بجانبك.. وتفرض كينونة جزئيتي منك.. ليرسمني طفلاً هناك فوق أوراقه التائهة على أرصفة اللجوء..... وأرى طيراً يرافق تجربتي؛ عجب.. وتهدج السؤال في؟!

لا أسماك في بحرنا ! فما هذا التحليق في رقصة غريبة  
هنا!! وحدهت قاطعةً بإجابةٍ أفتعتها لتفتعني يا بحر:  
"كي يكون اكتمالاً للوحة العمر هنا على ضفتك...!!  
حين يشكو اللجوء تشردي !! ".....  
والنقطتني ساعة الزمان؛ فجرتني إلى غياهب التاريخ  
حيث أريحا.... وجدتها..!! أريحا قبالتني تنادي الحنين  
تُشكّلُ مارداً في طوى سأم الساعات حتى وصلت قبالة  
قُدسي ساحرة الأبواب والعيون.....  
في البدء لم أستطع لمس مائك يا بحر!!!  
جمدت لحظاتي معك في صورة لي على شريط كاميرا..  
ثم اقتربت منك أكثر... لأمارس طقوس عشقٍ  
تدرّبت عليها منذ الصغر.. واجهت حنيني أخيراً بك يا بحر  
مارست استرجاع تفاصيل كل الذكريات التي  
سردتها لي جدي عبر الزمان ..  
وحبّات ملحك التي انفجرت تحت وطأة القدم شاركتني  
نبش كل الزوايا في ذاكرتي ...  
وضممت حصى شاطئك بيدي وقدمتها بمرور أصابعي  
ثم انسلت بخطى بطيئة.. نحوك أكثر.. وركعت..  
وتوضأت كفي.... ووجهي توضأ من سحرك !!  
أنا هنا يا بحر... يا يمماً أتوجه على كل البحور..  
أتعلم أنني لم أمنع نفسي من تذوق مائك! تذوّقتك !  
وجدت طعمك لا ذعاً كغرتبي!!!  
وإخوتي وأنا ورفاقُ دربي عانقناك... وصدقنا  
بالسلام الوطني الذي تغلغل في دمانا ...  
يممنا الجباه نحو قداسة الأوطان.. وعلا الهدير..  
وصهيل الخيول...  
"فدائي فدائي يا أرض الجدود"  
ووقعت في مسامعي خلفية عجيبة من الألحان  
صيغت لتصبّ فيك يا بحر... فكنت وعاء  
اسماعيل... وتلقفت سيلاً جارفاً من مقلتيه ...  
حزبنتين كانتا.. هاربتين نحو الأصيل.....  
وأحمد العربي منسحاً كوفيتك....  
يوثقُ تعرّجات شاطئك... وقلتُ :  
كناً نرسماً هذا التّعرجُ خطأً في أيقونةٍ  
ونحن الآن في تفاصيلك !!  
ليرسمنا طفلاً هناك ويرسمك.....  
واغتالني صوت المنادي: أرف الرحيل  
أرف الرحيل ... أرف الرحيل!!!!!!  
فصحت كيف أتركك يا بحر خلفي!!؟؟?  
وأنا الآن أنت؛ وأنت أنا ! كيف أصيغ هذا الموقف؟؟!  
كيف أصرفه؟؟!! لا يُصرف!!!!  
كيف أتركك يا بحر خلفي .....

وتهمسُ : أنا لك وأنت لي... تهمس لي بحنين أمواجك  
وتلمسُ أعماقي هنا أكثر ..  
كم أنت حنونٌ يا يمّ كنعان ؛ وأنت تغسلُ  
روحي العطشى لرؤية البلاد.. وأنا كصائمٍ  
يبلل جسمه بماء استحمامٍ لا يُفطرُ !!!  
فالأذان لم يُرفَع حتى الآن !!! الأذان لم يُرفَع !!!؟؟  
اعتذر يا بحر!! فحضورك الغالي عميقٌ في شرايبي....  
لن أفطرَ هذا المساء... سأسجّلُ ساعتني  
لحظة قبضة يدي على تراب بلادي المقدسي..  
ها هي الشمس تنهي زيارتها لشطآنك هذا المساء  
أمسكُ بخيوطها كي لا يغيب المشهد حولي !!!  
كم أكره الضياع ؛ وكم أمسكت نفسي قبل هذا الوقت  
كي لا أتيه في مساحات الضياع !!!!  
وكم أثبتتُ كينونتي في مساريب الشتات  
وفي مهب أحلام الشراع... كم أكره الضياع  
وعُدنا ! ؟ وعُدتُ مرةً أخرى!!  
وأدرت ظهري لك قافلةً ؛ مكبلةً بعودتي نحو  
لاعودتي! وتاهت المصطلحات مني ثانية !!  
فخلفي الآن هو افتراض الحقيقة ؛ وأمامي الإجباري  
هو خلفي !!!؟؟؟؟.....  
سأعود إليك يا بحر من الجهة الأساسية..  
وأوضئ وجهي ويدي... سأعود من أجمل الطرقات  
في ضفتك الغربية... وسيُسلم الشمال على الجنوب  
سأطوي الأرض طياً... وأجري في مساحات البلاد  
جرّي الخيول... وأنثر شعري كي يعبر الريح...  
ثم أزرعه سوراً.. سياجاً... كي لا يمر المغول...  
كي لا تُسطر بعد اليوم في صفحاتنا إلا الأصول...  
خبرني بذلك إشراق الجباه عند رفاق الدرب  
لا لن يمر المغول.....